مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.
المجلد:08/ العـدد01 جوان (2024)، ص.ص.279-287.

ثنائية الصحراء والبحر وأبعادها الفنية والدلالية في الرواية الجزائرية المعاصرة
رواية "أدين بكل شيء للنسيان" لمليكة مقدم أنموذجا

The duality of “The Desert and The Sea” and its artistic and semantic dimensions in modern Algerian novel. The novel of “I Owe Everything to Oblivion” by Malika Mekaddam as a sample

نعيمة بلي
naima.belli@univ-jijel.dz
جامعة محمد الصديق بن يحي-جيجل
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2024/01/09 تاريخ القبول: 2024/05/26 تاريخ النشر: 2024/06/02

ملخص:

أخذ المكان أهمية قصوى في الواقع الإنساني، ولعل هذه العلاقة هي التي حركت لدى الإنسان المبدع هاجس التعبير عن المكان في آثاره الإبداعية، وقد احتلت ثنائية الصحراء والبحر مكانة بارزة في الأعمال الروائية، فتعددت صورها وأبعادها الفنية والدلالية وسماتها الجمالية، ويحمّل الروائي هذين الفضاءين بتوجهات أيديولوجية ورؤى فكرية متعددة، فتستجيب هذه الثنائية لتقاطبات مكانية تساهم في إبراز وجهة النظر اتجاه المكان، فتزودت بذلك بحمولات ثقافية تاريخية وحضارية.

وعلى هذا الأساس اخترنا رواية "أدين بكل شيء للنسيان" للروائية الجزائرية "مليكة مقدم"، التي جمعت بين فضاءين مختلفين هما الصحراء والبحر، لتعبر عن تجربة إنسانية خاصة ومختلفة، حيث يهدف المقال إلى الكشف عن الأبعاد الفنية والدلالية والجمالية التي راح المكان يكشف عنها في الرواية. ومن النتائج المتوصل إليها في المقال أن: الصحراء والبحر ثنائية ضدية كشفت أبعادا دلالية وتقاطبات مكانية وكذا سمات جمالية، فقد مثلا الهوية والاغتراب، كما مثلا فضاءين أليفين مفتوحين، ومعاديين مغلقين.

كلمات مفتاحية: الفضاء، الصحراء، البحر، الرواية الجزائرية، أدين بكل شيء للنسيان.

Abstract:

The place has taken an extreme importance in the human reality as well as in the novelist’s creative works. Both the Desert and the Sea texts have semantic and artistic features that the novelist supports them with ideological orientations and cultural visions.

We have chosen the novel “I Owe Everything to Oblivion” by Malika Mekaddam who combined the Desert and the Sea to express a human experience. So, this research aims to reveal the place’s artistic, semantic, and aesthetic dimensions. One of the results is that the theme of the Desert

and the Sea have opposite duality. They represent the identity and immigration, and also represent close and open spaces in the other hand.
Keywords: *Space, The desert, The sea, The Algerian novel, I owe everything to oblivion.*

مقدمة:

لقد كان الصراع بين البشر بسبب المكان منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد، ذلك أن أغلب الحروب التي وقعت عبر التاريخ كانت دوافعها السيطرة على الأماكن، بما تحتويه من مقومات طبيعية ومواقع استراتيجية، وبذلك أخذ المكان أهمية قصوى في الواقع الإنساني، ولعل هذه العلاقة هي التي حركت لدى الإنسان المبدع هاجس التعبير عن المكان في آثاره الإبداعية، فتنوعت الأمكنة في النصوص الروائية بين صحارٍ وجبال ومدن وبحار، وقد احتلت ثنائية الصحراء والبحر مكانة بارزة في الأعمال الروائية بعدما كانت السيطرة للمدينة في البداية مع الرواية البورجوازية، فتعددت صورها وما تنطوي عليه من أبعاد فنية ودلالية وسمات جمالية حسب الرؤية الخاصة بالمبدع أو الحالة النفسية لشخوص الرواية، ولاشك أن الروائي يحمّل هذين الفضاءين توجهات أيديولوجية ورؤى ثقافية، وبذلك تستجيب هذه الثنائية إلى تقاطبات مكانية تساهم في إبراز وجهة النظر اتجاه المكان. والفضاء الجغرافي الروائي ليس مجرد ثيمة أو تقنية سردية للفعل الروائي، إنما هو المادة الجوهرية للكتابة الروائية خاصة عندما يوظفه الروائيون وفقا لميولهم وأهوائهم وأفكارهم، ولاسيما عند معالجتهم الوقائع الاجتماعية والسياسية وحتى النفسية والإيديولوجية منها، والتي تبدو فيها توجهاتهم نحو الحياة عامة والمكان خاصة. وقد تزايد الاهتمام بالفضاء الروائي كثيرا بعدما كانت الجهود منصبة على التقنيات السردية الأخرى كالشخصية والزمن، والرواية الجزائرية ليست بمعزل عن هذا المضمار السردي، فقد استجابت لمتطلبات العصر وظروفه، وتكيفت مع منطلقات التجديد، وواكبت ظاهرة التعبير عن الأمكنة من زوايا شتى، فتزودت بذلك بحمولات ثقافية، وتاريخية، وفكرية، وحضارية، وهو ما نهدف إلى الكشف عنه في هذا المقال، من خلال رواية "أدين بكل شيء للنسيان" للروائية الجزائرية "مليكة مقدم".

وتأسيسا على هذا الطرح نتساءل: ما هي مختلف الأبعاد الفنية والدلالية التي تمثلتها ثنائية الصحراء والبحر في الرواية الجزائرية؟.

وانطلاقا من هذه الإشكالية تولدت تساؤلات أخرى منها: ما مفهمو الفضاء الروائي؟ كيف تجلت ثنائية الصحراء والبحر في المتن الروائي؟ ما هي التقاطبات المكانية والسمات الجمالية في رواية أدين بكل شيء للنسيان؟.

للإجابة عن هذه التساؤلات سنقوم أولا بتقديم مفاهيم أولية عن الفضاء، كما بتتبع دلالات كل من الصحراء والبحر في العتبات النصية والمتن الروائي، وما يكشفان عنه من جماليات.

1-مفهوم الفضاء:

اهتم النقاد بدراسة الفضاء في الكتابة الروائية، وقد تعددت التعريفات والمصطلحات فنجد المكان والفضاء، وسنكتفي هنا باستخدام مصطلح الفضاء، لأننا نراه متناسبا أكثر مع طبيعة وهدف الدراسة؛ لأن المكان حيز جغرافي مادي محدّد بعينه، لكن حينما يحمّل بدلالات إيديولوجية ثقافية وحضارية، يصبح معناه أوسع من المكان فيرتد فضاء ذا أبعاد فنية ودلالية شتى، وهو ما يتمثّله كل من فضاء الصحراء والبحر في الرواية المختارة للدراسة.

وفي التعريف اللغوي للفضاء نجد: "فضا المكان وأفضى أي اتسع وأفضى فلان أي وصل إليه وأوصله بمعنى أنه صار في فرجته وفضائه وحيزه "[1]. وبذلك يأخذ الفضاء معنى الأرض الواسعة وهو تعريف يتناسب مع طبيعة الصحراء والبحر أيضا.

أما اصطلاحا فالفضاء هو: "الحيز الذي تظهر فيه الشخصيات والأشياء متلبسة بالأحداث تبعا لعوامل عدة تتصل بالرؤيا الفلسفية وبنوعية الجنس الأدبي وبحساسية الكاتب أو الروائي"[2]. وهنا يمكن القول إن الفضاء الروائي لم يعد مجرد عنصر ثانوي أو ديكور تتحرك فيه الشخصيات وتدور فيه الأحداث، بل هو مكون أساسي ومادة جوهرية في النص، له علاقة برؤية وفلسفة الكاتب والموضوع الذي يكتبه، فيحمّله بدلالات مختلفة تتعلق برؤية الشخصيات للوجود والأشياء، كما قد يستقطب رؤية القارئ المتذوق أيضا.

كما يعرّف كذلك على أنه: "الفضاء الرّحب الذي يحددنا ونحدده ويحيط بنا من كل جانب من فوقنا ومن تحتنا وعن أيماننا وشمائلنا، لا نهائي، يؤدي دورا ذا أهمية في الفهم والتفسير باعتباره مكونا من مكونات الخطاب الأدبي"[3]. وهو على أهميته قد يوهم القارئ بالواقعية رغم كونه متخيلا، وفي ذلك تلعب اللغة والوصف دورا مهما في عملية تقعيد العملية السردية، فيأخذ الفضاء بعدا فنياً تخييليا في عملية الإبداع الأدبي.

"فالمكان في العمل الفني شخصية متماسكة...ولذا لا يصبح غطاءً خارجيا أو شيئا ثانويا، بل هو الوعاء الذي تزداد قيمته كلما كان متداخلا بالعمل الفني"[4]. خاصة عندما يحسن الروائيون توظيفه، وفقا لميولهم وأهوائهم وأفكارهم، لاسيما عند معالجتهم الوقائع الاجتماعية والسياسية، وحتى النفسية والإيديولوجية منها.

2-دلالة فضاء الصحراء والبحر في العتبات:

تعد عتبات النصوص مفاتيح للولوج إلى عوالم النص الداخلية وفك شفراتها الرامزة، والغلاف الخارجي هو العتبة الأولى التي تصادف القارئ وتسمح له بسبر أغوار النص، وذلك بما يحتويه من صور ورموز ذات أبعاد دلالية يمكن أن تكون لها علاقة بموضوع الرواية، فالغلاف له "وظيفة في فهم خصوصية النص وتحديد جانب أساسي من مقاصده الدلالية"[5]. وغالبا ما يكون للغلاف صلة بدلالات النص وبأنساقه الظاهرة والمضمرة، "فالغلاف ومكوناته يعد المدخل الأول لعملية القراءة"[6].

وغلاف رواية "أدين بكل شيء للنسيان" قد سمح لنا باستقطاب مكنونات النص، من خلال صورته ندرك أن البطلة مرتبطة بفضاء الصحراء ارتباطا هوياتيا، تنتمي إليه ويشكل جزءا من كيانها ووجودها، وما يدل على ذلك هو آثار الأقدام في الرمل كالبصمة الخاصة بالإنسان، التي تدل ظاهريا على التواجد والحضور كما قد تحيل على دلالة مضمرة هي الغياب والرحيل، خاصة وأن البطلة عاشت طفولتها في الصحراء ثم رحلت إلى فضاء آخر هو البحر، لكن ماذا عن فضاء البحر فلا أثر له في غلاف الرواية؟، إذا دلّ ذلك على شيء إنما يدل على أن البحر فضاء الغربة، فضاء ثانوي هامشي- يأتي في المرتبة الثانية بعد الصحراء التي تجسد الفضاء المركزي أو الفضاء الهوية، لأننا سنكتشف لاحقا أن البطلة قد غابت عن فضاء الصحراء لتلتحق بفضاء البحر الذي يدلّ على الاغتراب المكاني والاستلاب الهوياتي.

إذا جئنا إلى عتبة العنوان والذي "يعد العنوان نظاما سيميائيا ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية، تغري الباحث بتتبع دلالاته ومحاولة فك شفراته الرامزة، فالعنوان بالنسبة للسيميولوجي بمثابة بؤرة ونواة للنص، فهو يمنحه الحياة والروح والمعنى النابض"[7].وفلا شك أن عنوان رواية أدين بكل شيء للنسيان" مارس إغراء علينا كقراء لاستقراء هذه الأيقونة واكتشاف علاقتها بدلالة النص الروائي وبالغلاف نفسه، فالنسيان مرتبط بذكريات معاشة داخل فضاء الصحراء، فكأن البطلة تعترف بفضل النسيان عليها، فهي ترحل عن الصحراء

لتنسى هواجسا وأحداثا حصلت لها، وهو ما آلت إليه دلالة آثار الأقدام والعنوان معا، إذ جسدتا ثنائية الحضور والغياب في الفضاء الصحراوي الذي دلّ على ذاكرة المكان.

3-دلالة الصحراء والبحر في المتن الروائي:

تختلف طرق توظيف الفضاء الجغرافي داخل الجسد الروائي، فالكاتب يحمله برؤى أيديولوجية وثقافية معينة، فيصبح ذا دلالات وأبعاد فنية تتآلف كما تختلف، ورواية "أدين بكل شيء للنسيان" قد احتوت على فضاءين هامين في حياة شخوصها، هما الصحراء والبحر وقد استجابا لتقاطبات مكانية متنوعة نوضحها كالتالي:

3-1- الهنا/الأنا # الهناك/الآخر:

لقد مثّل الفضاء الروائي عامة والصحراوي خاصة الأصل الثابت والراسخ لدى مجموعة من الروائيين، واعتبروا هذا الفضاء الزخم الهوية والحضارة، "فالعلاقة بين الهوية والمكان هي علاقة تماهٍ في أعلى درجاتها الممكنة، فالهوية تتجسد وتتفصل وتتراءى وتتمشهد في صورة المكان دائما، مثلما المكان يؤسس هويته كي يعيش ويدوم، إذا لا هوية بلا مكان ولا مكان بلا هوية"[8].

ولأن الرواية تسرد حياة الشخصية البطلة "سلمى" التي عاشت طفولتها في الصحراء، وتعرضت لبعض الأحداث العنيفة التي هزّت كيانها، فقررت عندما كبرت أن تهرب من مجتمعها وتلتحق بمدينة "وهران"، ثم تهاجر إلى "فرنسا" لتندمج داخل فضاء جديد هو البحر، فقد مثلت الصحراء بالنسبة لها تارة الهنا أي فضاء انتمائيا /هوياتيا يشكل جزءا من كيانها ووجودها، "جلست وانزلقت على الرمل بمتعة. كانت ابنة هذا الكثيب الذي التصقت به"[9]. وهنا يتضح أن الصحراء جزء لا يتجزأ من وجودها، فالبطلة "ابنة الكثيب الذي التصقت به"، وتارة أخرى يتبدّى فضاء الصحراء بالنسبة للبطلة الهناك، أي فضاء غريبا يدعو إلى الشعور بالانفصال والاغتراب، "لن تعود سلمى لتعيش في الصحراء مهما كان الأمر"[10]. لأنها لم تعد تشعر بأي صلة تربطها بالصحراء، بل سيطر عليها شعور مغاير وهو الشعور بالفراغ، وبعدم الانتماء لهذا الفضاء الذي أصبح يقيد حريتها وأحلامها.

أما فضاء البحر الذي رحلت إليه "سلمى" فقد أبان هو الآخر عن دلالات مختلفة، منها البعد الانتمائي حيث شعرت البطلة أنها تنتمي إليه رغم أنه غريب عنها، "عينا سلمى تتفحصان الأفق قبالة البحر. هناك، هو بيتها أيضا"[11]. فمن الغرابة أن يشعر الإنسان بالانتماء إلى فضاء لم يولد فيه ولم يكبر به، لكن هذا ما حصل مع "سلمى" عندما قامت برحلة إلى فرنسا واستقرت فيها، وهو ما يحيل إلى صراع هوياتي وقعت فيه البطلة، إذ قد يعني أن البحر يمكن أن يحسسها بالشعور بالانفصال عن المكان أيضا، "افترت شفتاها عن ابتسامة عندما فكرت أنها ستكون في بيتها مهما كانت الضفة التي تقف عليها. الهنا والهناك ينقلبان لتحديد حدّها الحقيقي، هذا البحر. السراب الأكثر إبهارا"[12]. في هذا المقطع ينقلب البحر وهما وسرابا، كما أنه لا يهم أين يكون بيت "سلمى"، فأينما يكون سواء في الصحراء أو وراء البحر هو مسكنها.

ونلاحظ عند قول الروائية "الهنا والهناك ينقلبان لتحديد حدّها الحقيقي"، أنها تستعمل التقاطب المكاني لتبرز رؤيتها اتجاهه، خاصة إذا علمنا أن من أنواع الفضاء "الفضاء كرؤية أو منظور" حسب النقاد. إن ثنائية الصحراء والبحر في هذا النص الروائي قد أتاحت لنا كقراء الإمساك بتقاطب دلالي هو الهنا والهناك، فالصحراء مثلت الهنا والبحر مثل الهناك، مع إمكانية أن يتحول هذا التقاطب إلى العكس بسبب الحالة

النفسية للبطلة، وهو ما يحيل على بعدين دلالين هامين لفضائي الصحراء والبحر، هما البعد الوجودي والجانب النفسي.

3-2- الفضاء ثابت/مغلق# متغير/مفتوح:

يرد الفضاء في العمل الروائي على أساس ثنائية ضدية، كالفضاء المفتوح والمغلق، وغالبا ما ارتبط المفتوح بالتغير والديمومة والاستمرارية، "وتتصل هذه الأماكن المفتوحة بفضاءات محدودة وغير محدودة كالبحر والغابة والصحراء والشوارع والجسور وهي بدورها توحي بالحرية والانطلاق والإنسجام مع الذات"[13]. أما المغلق فهو ثابت لا يتغير ويكون بحسب رؤية ووجهة النظر الخاصة بالشخوص، فالصحراء بالنسبة لسلمى تارة فضاء مغلق وغير ثابت، "لقد تخلصت من العالم السجني للصحراء، من زنزانة التقاليد"[14]. فالصحراء تمثل بالنسبة لها السجن المغلق المطبق على أحلامها وطموحها، في حين مثلت الصحراء في مواضع أخرى ذلك الفضاء المفتوح المتغير، "أصبحت سلمى تدرك، بداية من الآن، أن لا شيء يساعدها على رؤية أعماقها بصفاء سوى السفر إلى الصحراء"[15]. وهنا نجد تناقضا في الرؤية التي تمثلها الصحراء من طرف البطلة والتي تحيل إلى صراع هوياتي تعاني منه.

في حين راح البحر أيضا يكشف عن هذه الثنائية الضدية المكانية، وهذه القطعة السردية تبرز كلتا الدلالتين معا: "تتفاجأ سلمى وهي تنظر إلى هذا البحر بارتياب، لماذا يفتح آفاقا للبعض وينفتح كقبر للآخرين"[16]. فالبحر هنا يمكن أن يكون فضاء مانحا للأمل ومحققا للأحلام عند البعض، كما يمكن أن يكون خانقا على البعض الآخر ومقيدا لهم أيضا، ومن خلال قراءة الرواية تتضح لنا علاقات متشابكة بين البطلة وفضائي الصحراء والبحر، خاصة الصحراء التي تعد فضاء مركزيا بالنسبة لها، إلا أنه يقف بمحمولاته الثقافية وظروفه الاجتماعية عائقا في وجه آمالها.

3-3- الفضاء الأليف # الفضاء المعادي:

تحكم الإنسان علاقات روحية بالفضاء الجغرافي الذي يعيش فيه، ويلعب التواصل الجسدي والروحي مع الفضاء دورا مهما في التعبير عنه ووصفه ونقل تصوراته، وبذلك تكون تلك الفضاءات إما معاشة أليفة أو تكون مستحيلة ومعادية، ويعرّف الفضاء الأليف بأنه الفضاء الذي يحبه الإنسان، ويشعر فيه بالراحة والسكينة "هو مكان ممتدح ويرتبط بقيمة الحماية التي يمتلكها المكان والتي يمكن أن تكون قيمة إيجابية"[17]. وهذا ما راح فضاء الصحراء يمثّله في النص الروائي بالنسبة للبطلة، إذ تشعر فيه سلمى وهي صغيرة بالأمان والحميمية وتمتزج مع حبات الرمل امتزاجا وجوديا، "رأت سلمى من قبل، وهي مختبئة في حلمها، أنها طفلة مسرعة نحو الكثيب، وإذ وصلت إلى القمة لفّت جسدها ومحنتها في جوف الرمال. لم يدم القلق طويلا وقد امتصتها نعومة الرمال الرائعة"[18]. وهذا المقطع يعني أن الصحراء بما تحتويه من عناصر طبيعية على غرار الرمال تشكل الملجأ بالنسبة لسلمى، تنسى نفسها وقلقها وهي متواجدة فيه. وبهذا المعنى يكون المكان قادرا على بث مشاعر الاطمئنان والألفة لدى الإنسان، لأنه المهدّئ والملجأ والملاذ، وهو الذي يحتوي كل المشاعر السامية الصادقة والذكريات الطفولية.

وعلى صعيد آخر قد يتحول هذا المكان بسبب بعض الأحداث والمواقف، إلى مكان معادٍ طارد للشخوص الروائية لا يصلح للعيش والبقاء فيه، "أترغب فعلا في الذهاب إلى الصحراء؟ كلمة صحراء كافية لبلورة كل الرعب الطفولي. رأت سلمى نفسها صغيرة ترفع عينيها إلى الأفق بخوف ممزوج بقناعة بأن لا شيء يمكن أن يحدث. لا سراء ولا ضراء، عدم مستبطن"[19].

وهنا تعطي البطلة صفة العدمية والتجرد من المعنى والوحشية والكراهية للصحراء، فتجعله معاديا سلبيا منبوذا، ويعرف المكان المعادي على أنه ذلك الذي يخلق "الصورة المضببة لمكان غير أليف يفرض قدرا عاليا من التشيؤ والرقمية تضيع فيها الخصوصيات ويضعف الإحساس بالمكان، فيغدو مكان الكراهية والصراع في موضوعات ملتهبة انفعاليا لصور كابوسية فهو مكان ينفر منه الفرد لكنه ينجذب إليه دون إرادة منه"[20]، فهو بهذا المعنى يكون عكس المكان الأليف، يبعث في نفس شخصيات الرواية مشاعر سلبية، كالخوف والكره والحزن والقلق والاغتراب رغم انتمائهم إليه، وهو ما شعرت به "سلمى" اتجاه الصحراء.

أما البحر فقد مثل هذا التقاطب أيضا، فرغم أنه فضاء هامشي في الرواية إلا أنه كشف عن أبعاد فنية دلالية شتى، وذلك لأن الروائية قد حمّلته برؤاها الايديولوجية وتجاربها المعاشة، خاصة وأن "مليكة مقدم" تكتب تجربتها المعاشة في رواية السيرة الذاتية، فيكون البحر بالنسبة إليها فضاء تلجأ إليه للهروب من ذكرياتها وقلقها وصراعها مع ذاتها ومجتمعها، تقول: "منظر البحر وتدفقه يترعان وحدة سلمى ويمددان طعم ملذاتها، إن سمحت لها درجة الحرارة ستمشي، تمشي كثيرا والماء إلى الركبتين. هذه الملامسة السائلة تحيطها بتياراتها المائية وتنشطها. تستسلم لها سلمى كلما جهلت ماذا تفعل. تترك التيارات تجذبها، ما يدفعها أحيانا إلى الارتماء في البحر الأبيض المتوسط هو شدة القلق أو شدة اليأس"[21].

وهذا المقطع يؤكد أن البحر مكان حميمي أليف يجذب سلمى بتياراته الهوائية وأمواجه، يبدد قلقها ووحشتها، وفي أحيان أخرى قد يكون معاديا طاردا للشخوص لا يساعد على التعايش، "لا يوجد قمر. البحر الآن شديد السواد والتنفس صعب، الانبجاسات البعيدة ترشّه من حين لآخر، ثم يغرق كل شيء تحت ثقل الظلام"[22]. فعندما يكون البحر بهذه الحالة لا يعود صالحا لاحتواء الشخصية البطلة، بل يعمل على تعميق إحساسها بالقلق والشعور بعدم الراحة أثناء تواجدها بالقرب من البحر.

وعلى غرار هذه الأبعاد الفنية لفضائي الصحراء والبحر هناك أبعاد دلالية أخرى كالبعد الانتمائي/الأنا، ذلك أن الروائية/الساردة/البطلة هي سليلة الفضاء الصحراوي، إلى جانب البعد الغيري/الآخر الذي يمثله البحر لأنه كان الفضاء الذي رحلت إليه البطلة هروبا من الصحراء، وهناك البعد الاجتماعي أيضا حيث أن الرواية تعالج موضوعا اجتماعيا هو قتل الأطفال غير الشرعيين لمداراة فضيحة الزنا.

وبهذا يكون للمكان بعد اجتماعي كما ذهب إلى ذلك "ياسين النصير" يقول: "للمكان عندي مفهوم واضح يتلخص بأنه الكيان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه، ولذا فشأنه شأن أي نتاج اجتماعي آخر يحمل جزءا من أخلاقية وأفكار ووعي ساكنيه"[23]. وهذه المقولة تتجسد داخل الرواية من خلال الشخصيات وعلاقتها بالفضاء الجغرافي التي تتواجد فيه، التي تكشف بعدا اجتماعيا للفضاء الصحراوي وما يحمله من عادات وتقاليد قد تخنق الشخوص، "لم تصدق أنها ها هنا، هي ابنة الفقراء، هنا وحدها، لقد تخلصت من العالم السجني للصحراء، من زنزانة التقاليد"[24].

فالصحراء هنا تحمل ثقافة ساكنيها أو العكس، قد يتأثر فكر الإنسان بطبيعة الصحراء، وكذلك الأمر بالنسبة للبحر أو أي فضاء آخر، فلابد أن تنشأ تلك الرابطة الروحية بين الإنسان والمكان الذي يسكنه ويتفاعل معه فكرا وروحا.

4- جماليات القبح للفضاء الجغرافي:

قد يلجأ الكاتب إلى استخدام تقنيات سردية ليرسم معالم الجمالية في النص السردي، من بينها الفضاء الجغرافي الذي يساهم في تأسيس وبناء العملية السردية، "حيث أصبح ينظر إليه على أنه عنصر شكلي

وتشكيلي من عناصر العمل الفني، وأصبح تفاعل العناصر المكانية وتضادها يشكل بعدا جماليا من أبعاد النص الأدبي"[25]. ولعل الهدف من دراسة جماليات الفضاء، هو إبراز دور اللغة والوصف في تحديد مواطن الجمالية في النص الروائي؛ لأن لها قيمة دلالية ودورا أدبيا تعبيريا، فلطالما شكلت الفضاءات الجغرافية بمختلف أنواعها وتقاطباتها منبعا لجماليات الإبداع والتعبير، وذلك راجع لطبيعة العلاقة بين الإنسان والمكان.

في الرواية نجد بعض المقاطع التي تبرز جماليات الصحراء والبحر، عن طريق اللغة والوصف كما تكشف عن القبح الموجود أيضا، "... في سفح الكثيب، تشريع الأرض في نسج درجات من البنفسج الأرجواني والأمغر وتطويها في جثوة مباشرة بعد الانتفاخات النحاسية الأخيرة للريح. تستخرج شواهد القبور، السمراء أو القرمزية من حفر الديماس. لا أثر للإسمنت أو الإسمنت المسلح الذي يخدش تناغم الألوان"[26]. من هنا نتبيّن أن عناصر الصحراء الجغرافية كالكثبان الرملية والرياح وأصواتها والسماء و الشمس ... تساهم في تعميق ذلك البعد التخييلي للسارد في وصف مناظر الصحراء الخلابة، ونلاحظ مدى اعتماد الساردة على اللغة الجميلة التي تجذب القارئ لتتبع عناصر الصحراء الساحرة التي تنبض بالحياة.

كما يمكن أن تشكل هذه اللغة مصدرا للقبح أيضا، فالفضاء الجغرافي في الجسد الروائي قادر على الكشف عن البشاعة، "استولت البشاعة على القرية. انهدّ القصر الجميل الذي تم التخلي عنه، في حين غنغر بنيان شنيع المساحة التي بين أكوام الأنقاض والكثبان"[27]. وليس بغريب على البطلة أن تنظر إلى الصحراء بهذه الطريقة المزدوجة؛ ذلك أنها تعاني انسلاخا عن هويتها وانتمائها، فيما ترى في البحر كل شيء جميل ورائع، "حملت معها كتابا وجرائد مع أنها تعلم أنها لن تقرأ شيئا. ما زالت مشوّشة بعد الذي عاشته لتستطيع ابتلاع أية لفظة. إنه يوم فاتر يختبئ فيه الشاطئ خلف المواسم. الضوء يستنفذ قواه وينسج السماء والبحر بنسيج كله ذهبا وألقا"[28].

من خلال هذه المقاطع المختارة نستطيع القول أن الروائية اختارت لغة سلسة وتراكيب مختارة، لتصف الفضاء الجغرافي، ولعبر عن علاقتها بالصحراء والبحر في آن معا، كما أنه من الملاحظ أنها عقدت مقارنة بينهما، فبينما مثلت الصحراء الفضاء الأصل بالنسبة للبطلة وارتبطت به وجدانيا وفكريا، إلا أنها شعرت بالاغتراب وبالانسلاخ داخله، ما جعلها تهرب إلى فضاء البحر الذي ساعدها على تجاوز مآسيها ونسيان محنتها النفسية بسبب التقاليد والعادات الاجتماعية التي قيدتها.

خاتمة:

ختاما لما تم تقديمه في هذه الورقة البحثية، والتي عالجت الأبعاد الفنية والدلالية لتيمة الصحراء والبحر في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر، من خلال رواية "أدين بكل شيء للنسيان" لمليكة مقدم، توصلنا إلى نتائج كان من أهمها:

*أن الفضاء الجغرافي من بين التقنيات السردية المهمة التي يرتكز عليها النص الروائي.
*للصحراء والبحر مكانة في السرد الروائي الجزائري؛ وذلك يرجع إلى ارتباط الروائيين بهذه الفضاءات.
* العتبات الخارجية للرواية كالغلاف والعنوان لها دور كبير في تعريف القارئ بأهمية الفضاء الجغرافي.
*الصحراء والبحر لهما حمولات ثقافية وحضارية متصلة بالمجتمع والإنسان الذي يقطنها.
*تيمة الصحراء والبحر ثنائية ضدية كشفت أبعادا دلالية وتقاطبات مكانية وكذا سمات جمالية.
*يبقى النص السردي الجزائري بحاجة للتعريف بفضاءاته الجغرافية للتعريف بهوية الفرد والبلد.

هوامش البحث:

[1]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري: لسان العرب، مج 8، دار صادر للطباعة والنشر، لبنان، ط3، 2004م، ص304.

[2]- منيب محمد البوريمي: الفضاء الروائي في الغربة، الإطار والدلالة، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، دار النشر المغربية، الرباط، د ط، 1983م، ص 21.

[3]- عزوز علي إسماعيل : شعرية الفضاء الروائي عند جمال الغيطاني، دار العين للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2010م، ص 40-41.

[4]- ياسين النصير: الرواية والمكان، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، دط، دس، ص 17.

[5]- عبد الفتاح الحجمري: عتبات النص (البنية والدلالة)، منشورات الرابطة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1996م، ص07.

[6]- عبد الله عمر محمد الخطيب: النسيج اللغوي في روايات الطاهر وطار، أطروحة دكتوراه، إشراف د. شكري عزيز الماضي، الأردن، آب 2006م، ص30.

[7]- المرجع نفسه، ص 32.

[8]- محمد صابر عبيد: التنوير الروائي، استراتيجية العلامة، فضاء التأويل، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط1، 2015م، ص95م.

[9]- مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ترجمة: السعيد بوطاجين، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2012م، ص 69.

[10]- المصدر نفسه، ص 11.

[11]- م ن، ص 59.

[12]- م ن، ص ن.

[13]- عبد الحميد بورايو: منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، د ط، 1997م، ص 148.

[14]- مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ص 19.

[15]- المصدر نفسه، ص 29.

[16]- المصدر نفسه، ص 60.

[17]- جعفر الشيخ عبوش: السرد ونبوءة المكان، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2015م، ص 100.

[18]- مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ص 69.

[19]- المصدر نفسه، ص 29.

[20]- جعفر الشيخ عبوش: السرد ونبوءة المكان، ص 105.

[21]- مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ص 59.

[22]- المصدر نفسه، ص 18.

[23]- ياسين النصير: الرواية والمكان، ص17.

[24]- مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ص 19.

[25]- يوري لوتمان وآخرون: جماليات المكان، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط2، 1988م، ص 03.

[26]- مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ص 101.

[27]- المصدر نفسه، ص 57.

[28]- المصدر نفسه، ص 61.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

1- مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ترجمة: السعيد بوطاجين، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2012م.

ب- المراجع:

1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري: لسان العرب، مج 8، دار صادر للطباعة والنشر، لبنان، ط3، 2004م.
2- جعفر الشيخ عبوش: السرد ونبوءة المكان، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2015م.
3- عبد الحميد بورايو: منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، د ط، 1997م.
4- عبد الفتاح الحجمري: عتبات النص (البنية والدلالة)، منشورات الرابطة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1996م.
5- عبد الله عمر محمد الخطيب: النسيج اللغوي في روايات الطاهر وطار، أطروحة دكتوراه، إشراف د. ياسين عايش خليل، د. شكري عزيز الماضي، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، الأردن، آب 2006م.
6- عزوز علي إسماعيل: شعرية الفضاء الروائي عند جمال الغيطاني، دار العين للنشر، القاهرة، مصر ، ط1، 2010م.
7- محمد صابر عبيد: التنوير الروائي، استراتيجية العلامة، فضاء التأويل، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط1، 2015م.
8- منيب محمد البوريمي: الفضاء الروائي في الغربة، الإطار والدلالة، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، دار النشر المغربية، الرباط، د ط، 1983م.
9- ياسين النصير: الرواية والمكان، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، دط، دس.
10- يوري لوتمان وآخرون: جماليات المكان، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط2، 1988م.